سحبان وائل وخطبته

بقلم : د. فاروق مواسي

تصدير :

الخطابة فن أدبي يهدف أصلاً إلى الإقناع والاستمالة لنقل السامع من موقف إلى آخر، وفيها - بالإضافة إلى الفكرة المؤداة - لغة انفعالية وجدانية تؤثر على السامع ، وخاصة في عصر كانت الرواية هي العماد الأول في التلقي .

وإذا عدنا إلى العصر الجاهلي فإن طبيعة المجتمع السائدة كانت تكثر فيها المفاخرات والمنافرات والتحريض على القتال أو السفارة للصلح ، كما تكثر فيها وفود التهنئة والتعزية - مما جعل الخطيب زعيمًا في قومه* ؛ وكم بالحري إذا كان ذا طاقة في النطق الشفهي ، وله صوت إيقاعي ، ووقفة مهيبة مما يجعله يستحوذ على جمهوره .

ثم ازدهرت الخطابة في العصر الإسلامي بسبب داوعي الحياة الجديدة من دعوة للدين ووعظ، أو مواكبة للفتوحات ، أو دفاع عن سياسة حزبية أو مذهبية. وكان للقرآن تأثيره البالغ على النص الخطابي شكلاً ومضمونًا . فكانوا يستحسنون في الخطيب حضور البديهة، والقدرة على ارتجال الكلام ، وأن يكون رابط الجأش ، سليم النطق ، جميل الهيئة ، وغير ذلك من

---

* . يرى أبو عمرو بن العلاء أنه بعد أن كثر الشعر والشعراء في الجاهلية ، وبعد أن اتخذوا الشعر مكسبة ... «صار الخطيب عندهم فوق الشاعر» (الجاحظ ١٩٨٥ ، ج١ ص٢٤١) ، وقد تناول كارلو نالينو موضوع الخطابة الجاهلية فقال :«أما فن الخطابة فله عند العرب مقام عال جداً ... ولذلك أسباب مرتبطة بنظامهم السياسي المبني على الحرية ونوع من مجلس الشورى ... ومن الحري بالذكر أن الألفاظ التي كان العرب يعبرون بها عن متولي حكم قوم من أقوامهم أعني السيد والأمير عند عرب نجد والحجاز والقيل في أنحاء اليمن إذا بحثنا عن اشتقاقها بمقارنة سائر اللغات السامية وجدنا أن معناها الأصلي إنما كان القائل أو المتكلم.» (نالينو ، تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أمية، ط٢، دار المعارف بمصر - ١٩٦٩، ص٩٧) .

الصفات المعنوية والجسدية .

إن هذه الدراسة لا تبغي أن تتعمق في موضوع الخطابة ـ دواعيها ، وميزاتها ، وأساليبها ، وموضوعاتها ، كما لا تبغي التوقف على مبنى الخطبة على اختلاف أنواعها ، أو الخطباء بموضوعاتهم وأساليبهم ، فقد تناولت ذلك كتب قديمة وحديثة كثيرة ، وسأشير إلى كثير منها في تضاعيف الدراسة .

غير أني سأقف هنا بشيء من التفصيل على خطيب مخضرم مشهور هو سحبان وائل ، وذلك بسبب ذيوع صيته من جهة ، وندرة ما وصل إلينا عنه ومنه من جهة أخرى .

من هنا تطمح هذه الدراسة إلى أن تقدم سحبان وائل في ضوء جديد ، فتدرس خطبته المنسوبة إليه وموضع الشك فيها ، وأسباب شهرة سحبان وضرب الأمثال به .

سحبان وائل :

ضرب المثل بسحبان وائل ، فقيل : أخطب من سحبان وائل ، وأفصح من سحبان ، وأنطق من سحبان ، وأبلغ من سحبان[1] . فمن هو سحبان ؛ وماذا ترك لنا من أثر يشفع له بمثل هذه الشهرة حتى ذاع صيته ، وتردد اسمه على الألسنة ؟؟

ترجمة سحبان :

هو سحبان بن زُفَر بن إياس ، وهو منسوب إلى وائل باهلة [2] ، وقد أورده ابن حجر في الإصابة ضمن قسم المخضرمين الذين أسلموا في زمن النبي ولم يجتمعوا به [3]. توفي سنة ٥٤هـ[4] .

قومه ـ مكانة باهلة بين القبائل :

أشرت إلى أن سحبان نسب إلى وائل باهلة[5] ، ويهمني التوقف على هذه المسألة لما لها من علاقة في هذه الدراسة .

١ـ الميداني ١٩٥٥ ، ص٢٤٩ ، وانظر : علي ١٩٧٦ - ج٨ ، ص٧٨٠ .

٢ـ ابن قتيبة ١٩٨١ ، ص٦١١ .

٣ـ العسقلاني ١٩٧٠ ، ص٢٥٠ (الترجمة رقم ٣٦٦٦) ، وقد أشار ابن حجر إلى أن ابن عساكر ذكره في تاريخه ، وأورد كذلك :"وقال أبو نعيم في كتاب طبقات الخطباء ـ كان سحبان خطيب العرب غير مدافع ، وكان إذا خطب لم يعد حرفًا ، ولم يتلعثم ، ولم يتوقف ، ولم يفكر ، بل كان يسيل سيلاً" . وقد أشار عبد القادر بدران (ت. ١٩٢٧م) ـ مهذب تاريخ دمشق لابن عساكر أن الحافظ (يعني ابن عساكر) قد قصر في ترجمة سحبان، فقال : "وقد قصر الحافظ في ترجمته ، على أن ترجمته مشهورة جداً " (العسكري ١٩٧٩، ص٦٧). أما كتاب طبقات الخطباء لأبي نعيم فلم يرد في مصنفات المؤلفات المختلفة :(حاجي خليفة ، طاش كبرى زادة ، سركيس ..) .

٤ـ ٦٧٤م ، وقد أورد (ابن الجوزي ١٩٩٢ ، ص٢٨٣) أن وفاته كانت في حوادث سنة ٥٥هـ ، أما (الشريشي ١٩٥٢، ص٨٦) ، فيضيف لنا معلومات أخرى :"أنه أول من آمن بالبعث بالجاهلية ، وأول من توكأ على عصا ، وكان عمره مائة وثمانين سنة" . جدير بالذكر أنه لم تذكر تفاصيل عن حياته في مادة "سحبان وائل" في الموسوعة الإسلامية (E.I[2]) .

٥ ـ هناك رجالات وردت أسماؤهم مضافة إلى أسماء وأشياء مختلفة ، نحو : سحبان وائل ، كليب وائل ، حاتم طيّء ، زيد الخيل ، عروة الصعاليك ... إلخ (الثعالبي ١٩٨٥ ، ص٩٦) .

أما باهلة فهي من بني عبد القيس[٦] فقد ضرب بها المثل في اللؤم ، فقيل "لؤم باهلة". وأفرد الجاحظ فصلاً في «الشرف والخمول في قبائل العرب" ورد فيه قوله :«فالشرف والخطر في عبس وذبيان ، والمبتلى والملقّى والمحروم والمظلوم مثل باهلة وغنيّ»[٧] . وهناك روايات كثيرة تشير إلى ضعة باهلة ، أذكر منها :

«قال الأشعث بن قيس لرسول الله : أتتكافأ دماؤنا؟، فقال : نعم ، ولو قتلت رجلاً من باهلة لقتلتك به" [٨] .

«وقيل لبعضهم : أيسرك أن تدخل الجنة وأنت باهلي؟ فقال : نعم ،.بشرط ألا يعلم أهل الجنة أني باهلي ، والأخبار في ذلك كثيرة "[٩] .

وقد برز بين أبناء القبيلة القائد قتيبة بن مسلم وابنه عبد الله إبان عهد عبد الملك بن مروان ، وفي حوار جرى بين قتيبة والحُضين بن المنذر حول باهلة ومكانتها ـ يقول الحضين :

قومٌ قُتيبة أمهم وأبوهم لؤمٌ قتيبة أصبحوا في مجهل[١٠]

المأثور عنه :

لم يصل إلينا من خطب سحبان ـ على شهرته ـ إلا مقطوعة سأوردها لاحقًا ، وسأورد ظروف إلقائها ، ومحاورات سحبان خلالها ، حيث ستكون هذه الخطبة وشهرة سحبان موضوع حديثنا في هذه الدراسة .

٦ـ علي ١٩٧٦ ، ج٤ ، ص٣٣٩ . أنظر شجرة النسب في (مؤنس ١٩٨٧ ، ص١٣) والترتيب من الأعلى : نزار ← مضر ← قيس عيلان ← سعد ← أعصر (منبه) ← مالك ← (وهو باهلة) ← معن ← وائل . ويرى ابن عساكر أن باهلة هي امرأة مالك بن أعصر (ابن عساكر ١٩٧٩ ، ص٦٧) .

٧ـ الجاحظ ١٩٦٩ ، ص٣٥٩ .

٨ـ ابن خلكان [د. ت] ، ص٩٠ .

٩ـ ن. م. ، ص٩١ .

١٠ـالمبرد [د.ت] ، ج٣ ص١٤ ، أما قتيبة بن مسلم الباهلي (٤٩-٩٦هـ) فقد كانت له فتوحات كثيرة في المشرق وقد قتل إبان عهد سليمان بن عبد الملك سنة ست وتسعين.(وقيل سبع وتسعين - انظر: ابن خلكان [د. ت]، ج٤ ، ص٨٨).

أما في الاقوال والحكم فقد وقعنا له على قولين أو حكمتين هما :

- العقل بالتجارب لأن عقل الغريزة سلم إلى عقل التجربة [11] .
- شر خليطَيك السؤوم المحزّم[12] .
- وأما في الشعر فقد نسب له بيت من الشعر يفاخر فيه بقدرته الخطابية ، وذلك بعد إلقاء خطبته ، وهو :

لقد علم الحي اليمانون أنني إذا قلت «أما بعد» أني خطيبها[13]

كما نُسب له بيتان من الشعر وردا في مدح طلحة بن عبد الله الخزاعي ، يقول فيهما :

يا طلح أكرم من بها حسباً وأعطاهم لتالد

منك العطاء فأعطني وعلي مدحك في المشاهد[14]

١١- ابن عبد ربه ١٩٦٥ ، ج٢ ، ص٢٤٠ .

١٢- الجاحظ ١٩٨٥ ، ص١٤ ؛ ويوضح الجاحظ المعنى بقوله :"لأن السؤوم لا يصبر ، وإنما التفاضل في الصبر ، والمحزم صعب لا يعرف ما يراد منه ، وليس الحزم إلا بالتجارب " - ومن هذه الجملة الأخيرة يدخل الجاحظ صلب الحكمة الأولى التي لم يشر إليها باعتبارها قولاً منسوبًا إلى سحبان .

١٣- أنظر (الزبيدي ١٣٠٦هـ) - مادة «سحب» ج١ ، ص٢٩٤ ؛ (البغدادي ١٩٨٩، ج١٠، ص٣٧٠) ؛ (الزمخشري ١٩٧٧ ، ص٢٨) ؛ (الميداني ١٩٥٥ ، ص٢٤٩) - وهناك رواية أخرى لصدر البيت هي :"وقد علمت قيس عيلان أنني" (الآلوسي [د.ت] ، ص١٥٦) . ويذكر (الشريشي ١٩٥٢ ، ص٨٦) أن سحبان هو أول من قال "أما بعد" - حول هذه المسألة راجع :(البغدادي ، ن. م ، ص٣٧٠) .

١٤- الميداني ١٩٥٥ ، ص٢٤٩ ، ويقال إن طلحة قال له "احتكم" ، فانتقى سحبان فرسًا وقصراً ومالاً (ذكرت تفاصيل عنها) ، فقال طلحة :"أف لك لو سألتني على قدري لأعطيتك ..... ولكن أبيت إلا باهليتك" ، وفي رواية أخرى :"سألتني على قدرك وقدر قبيلتك باهلة (الزمخشري ١٩٧٧ ، ص٢٩ - ويشرح الزمخشري ذلك : "لأن باهلة على خلاف العز وعلو النفس ينسبون إلى البخل والرذالة " وتنتهي الرواية بتعليق طلحة "والله ما رأيت مسألةَ محكَّمٍ ألأمَ منها (الميداني م.س) ؛ وينسب البيت الأخير كذلك إلى عجلان بن سحبان ، وهو ابن الخطيب المشهور (ابن قتيبة ١٩٨١ ، ص٦١١) ، وكان عجلان شاعراً وخطيبًا" حلو اللسان جيد الكلام ، يجمع مع خطابته شعراً جيداً ويضرب الأمثال ..." (القيرواني ١٩٦٩ ، ص٨٨٤) ، وذكره الجاحظ :"ومن الخطباء الشعراء عجلان بن سحبان الباهلي" (الجاحظ ١٩٨٥ ، ج١ ، ص٤٨) .

نص الخطبة (أو المقطوعة منها) :

إن الدنيا دار بلاغ ، والآخرة دار قرار . أيها الناس فخذوا من دار ممركم إلى دار مقركم، ولا تهتكوا أستاركم عند من لا تخفى عليه أسراركم . وأخرجوا من الدنيا قلوبكم قبل أن تخرج منها أبدانكم ، ففيها حييتم ، ولغيرها خلقتم . إن الرجل إذا هلك قال الناس ما ترك؟ وقالت الملائكة ما قدّم عند الله ؟ قدّموا بعضاً يكون لكم ، ولا تخلّفوا كلاّ يكون عليكم [١٥] .

لقبت هذه الخطبة وعرفت بـ «الشوهاء»[١٦] ـ وذلك "لحسنها؛ وحين لم ينشد شاعر ولم يخطب خطيب" . ومع ذلك ، فثمة شكوك حول هذه الخطبة ونسبتها ، وسآتي على ذلك لاحقًا

شهرة سحبان وذِكر اسمه :

اشتهر اسم سحبان في كتب الأدب ـ شعراً ونثراً ـ باعتباره نموذجًا قدوة في البلاغة والخطابة، وإليك لمعًا من ذلك :

١٥ـ ابن نباتة ١٩٦٤، ص١٤٧ ؛ صفوت ١٩٦٢ ، ص٤٨٢ ، (القيرواني ١٩٦٩، ص٨٨٤) ، وقد أضاف (الآلوسي [د.ت] ص١٥٦) بعد كلمة "أسراركم" جملة أخرى هي : وأخرجوا إلى الدنيا قلوبكم قبل أن تخرج منها أبدانكم" ؛ وعلق الشارح محمد بهجة الأثري في الحاشية :"وأخرجوا إلى الدنيا قلوبكم – هكذا في الأصل ، ولعل صحة العبارة : وأخرجوا حب الدنيا من قلوبكم ، وذلك ليستقيم المعنى" . وقد أوردها (البغدادي ١٩٨٩ ، ص٣٧٠) – بقوله :"ومما ورد في خطبته البليغة ....."وانتهت لديه بسؤال الملائكة" ماقدّم؟" .

١٦ـ الجاحظ ١٩٨٥ ، ج١ ، ص٣٤٨ ؛ ومن معاني «الشوهاء» "الخطبة التي لم يصلّ على النبي فيها (راجع مادة "شوه" ابن منظور ١٩٦٨ ، ج١٣ ، ص٥٠٨) ؛ (الجاحظ ١٩٨٥ ، ج٢ ، ص٦) حيث يقول :"وقد عرف العرب ألقاب خطب معينة فقالوا البتراء لخطبة زياد بن أبيه ، والعجوز ـ وهي خطبة لآل رقبة ، ومتى تكلموا فلا بد لهم منها أو من بعضها ، والعذراء وهي خطبة قيس بن خارجة لأنه كان أبا عذرها . "أنظر كذلك ؛(الآلوسي [د. ت]، ص١٥٦). أما البتراء خطبة زياد فقد خطبها لدى دخوله البصرة سنة خمس وأربعين ، وكانت كما يرى البعض مجردة من حمد الله والصلاة على نبيه (ابن منظور، م. س مادة بتر ـ ج٤ ، ص٣٧) ؛ وانظر كذلك :(ابن عبد ربه ١٩٦٥، ج٤ ، ص١١٠) وقد أورد رواية أخرى ذكرت أنه حمد الله فيها .

يصف صفوان الأنصاري ـ شاعر المعتزلة ـ بلاغة واصل بن عطاء وصحبه :

وما كان سحبان يشق غبارهم ولا الشُّدق من حيّيْ هلال بن عامر[17]

ويقول حُمَيد الأرقط في هجاء ضيف :

أتانا ولم يعدله سحبان وائل بياناً وعلماً بالذي هو قائلُ

فما زال عنه اللقمُ حتى كأنه من العيّ لما أن تكلم باقلُ[18]

ويشرح الجاحظ معلقًا على هذين البيتين :"سحبان مثل في البيان ، وباقل مثل في العي ، ولهما أخبار"[19].

ويصف مكيّ بن سوادة البرجمي البصري ممدوحه بقوله :

يبذّ قريع القوم في كل محفل ولو كان سحبان الخطيب ودغفلا[20]

ويقول ثابت بن قرة في وصف الجاحظ :"الجاحظ شيخ المتكلمين ، إن تكلم حكى سحبان في البلاغة ، وإن ناظر صارع النظّام في الجدال" [21] .

ويصف الجاحظ الكتاب بقوله :" ... والكتاب وعاء ملئ علمًا ... إن شئت كان أبين من

١٧ـ الجاحظ ١٩٨٥ ، ج١ ، ص٢٥ ؛ والشدق جمع أشدق ـ المفوّه ذو البيان .

١٨ـ ابن قتيبة ١٩٨٦ ، ص٢٦٦ ؛ وحميد الأرقط هو حميد بن ثور أحد رجاز العرب المشهورين . أنظر : (السامرائي ١٩٨٤ ، ص٤٧) . وقد نسب هذان البيتان كذلك إلى مسكين الدرامي (البغدادي ١٩٨٩ ، ج٤ ، ص٢٥٥) . جدير بالإشارة إلى أن سحبان كثيراً ما يُذكر ويُذكر مقابلاً له باقل مثلاً للعيّ .

١٩ـ الجاحظ ١٩٨٥ ، ج١ ، ص٦ .

٢٠ ـ ن. م ، ج١ ، ص٣٣٩-٣٤٠ ؛ ودغفل هو ابن حنظلة السدوسي النسابة (أنسب العرب) ، قال البخاري : لا يعرف أنه أدرك النبي ، وقال أحمد : أرى أن له صحبة ، قدم على معاوية ، ثم قتلته الأزارقة . (أنظر : الزبيدي [١٣٠٦هـ] ، ج٧ ، ص٣٢٢ ، مادة «دغل» ، وكذلك : ابن قتيبة ١٩٨١ ، ص٥٣٤ .
أما مكي بن سوادة فقد ذكره المرزباني في معجم الشعراء ، أنظر :(السامرائي ١٩٨٤، ص٤٠٤) .

٢١ـ الحموي ١٩٢٢ ، ج١٦ ، ص٩٨ . أما ثابت بن قرّة (٨٣٦-٩٠١م) فهو صابئ ، ولد ونشأ بحران ، اشتغل بالفلسفة والطب ، له مؤلفات كثيرة (الزركلي ١٩٩٥، ج٢ ، ص٩٨) .

سحبان ، وإن شئت كان أعيا من باقل" [٢٢] .

كما أورد ابن زيدون في الرسالة الهزلية قوله الساخر بابن عبدوس "سحبان إنما تكلم بلسانك"[٢٣] .

ولن أسترسل في نماذج أخرى - وهي كثيرة - للتدليل على هذه الشهرة الواسعة الذائعة التي كانت الأمثال في فاتحة هذه الدراسة جزءاً منها - وهي جميعها تدل بصورة قاطعة على سيرورة اسم سحبان ؛ وفيما يلي اعتراف الخليفة معاوية بن أبي سفيان بقدرة سحبان الخطابية ، وذلك من خلال ظروف إلقاء هذه الخطبة التي ندرسها - علمًا بأن معاوية عُرف خطيبًا بارزاً ، وقد وردت خطبه في كتب الأدب المختلفة[٢٤] .

ظروف إلقاء الخطبة :

روت كتب الأدب كيف ألقى سحبان خطبته بين يدي معاوية على النحو التالي :

"قدم على معاوية وفد من خراسان فيهم سعيد بن عثمان[٢٥] ، فطلب سحبان فلم يوجد في منزله ، فاقتُضب من ناحية اقتضابًا[٢٦] وأدخل عليه ، فقال : تكلم! فقال : أنظروا إلى عصًا

٢٢- الجاحظ ١٩٦٩ ، ج ١ ، ص٣٩ .

٢٣- ابن نباتة ١٩٦٤ ، ص٥٥٦ .

٢٤- من خطب معاوية التي تدل على قوة بيانه وحجته ما نجد في (ابن عبد ربه ١٩٦٥، ج٤ ، ص٨١-٨٩) ؛ وقد ذكر الجاحظ :"... وكان من الخطباء معاوية" (الجاحظ ١٩٨٥ ، ج١ ، ص٣٥٣) .

٢٥- هذا النص مأخوذ عن (ابن نباتة ١٩٦٤ ، ص١٤٦-١٤٧) ؛ وفي رواية أخرى أن سعيد بن عثمان كان قد وجهه (القيرواني ١٩٦٩ ، ص٨٨٤) ، ويذكر (الزمخشري ١٩٧٧، ص٢٨) "أنه خطب في صلح بين حيين "دون الإشارة إلى الوفد الخراساني .

٢٦- ذكر الجاحظ بدلاً من هذه الجملة :"وأراد معاوية سحبان وائل على الكلام ، وكان قد اقتضبه اقتضابًا ، فلم ينطق حتى أتوه بمخصرة" ، والمقصود في معنى الجاحظ أنه ارتجله ، وتكلم به من غير تهيئة ؛ بينما يفهم من نص ابن نباتة أنه "انتزع" ؛ ووردت الجملة أيضًا في صيغة أخرى :"فلم يوجد عامة النهار ، ثم اقتضب من ناحية كان فيها اقتضابًا ، فدخل عليه" (القيرواني ١٩٦٩ ص٨٨٤) ؛ أما في خزانة الأدب فكانت الجملة :"فطلب سحبان فأتي به" ولم يرد ذكر "الاقتضاب" (البغدادي ١٩٨٩ ، ج١١ ، ص٣٧١) .

تقوّم من أوَدي[27]، قالوا : وما تصنع بها وأنت في حضرة أمير المؤمنين ؟ قال: ما كان يصنع بها موسى وهو يخاطب ربه ، وعصاه في يده . فضحك معاوية وقال : هاتوا عصا![28]، فجاءوا بها إليه ، فركلها[29] برجله ، ولم يرضها ، وقال : هاتوا عصاي[30] ، فأتوا بها فأخذها ، ثم قام فتكلم منذ صلاة الظهر إلى أن قامت صلاة العصر ، ما تنحنح ، ولا سعل ، ولا توقف ، ولا ابتدأ في معنى فخرج منه وقد بقي عليه منه شيء . فما زالت تلك حاله حتى أشار معاوية بيده[31] ، فأشار إليه سحبان : ألا تقطع عليّ كلامي ، فقال معاوية : الصلاة! ، قال هي أمامك ، ونحن في صلاة وتحميد ، ووعد ووعيد[32] فقال معاوية : أنت أخطب العرب! فقال سحبان : والعجم والجن والإنس ."

من هنا نرى أن سحبان كان يطيل الخطبة على نفس واحد[33] ، والخليفة راضٍ عنه ، بل يضحك له ، ويعترف بقدرته أنه "أخطب العرب"[34] فلا يكتفي سحبان بتجاهل طلب الخليفة

٢٧- حذف موضوع «العصا» من (صفوت ١٩٦٢، ص٤٨٢) .

٢٨- من عوائد الخطباء أخذ المخصرة بأيديهم ، "فلا يخطبون إلا بالمخاصر" (الآلوسي [د. ت] ، ج٣ ، ص١٥٣ - المخصرة هي العصا أو القضيب الذي يتخذ في أثناء الخطابة .

٢٩- أوردها الجاحظ "فرطلها - أي رازها ليعلم وزنها ، وفي رأيي أنها الأصوب. حيث أن ركل العصا لا يلائم مجلس الخليفة ؛ والتتمة لدى الجاحظ :"فلم تعجبه حتى أتوه بمخصرة من بيته" (الجاحظ ١٩٨٥، ج٣ ، ص١٢٠) .

٣٠- في رواية أخرى :"وقال هاتوا عصاه ، فأخذها " البغدادي ١٩٨٩، ج١٠ ، ص٣٧١)؛ ووردت كذلك :" فجاءوه بعصا فلم يرضها ، فقال جيئوني بعصاي" (القيرواني ١٩٦٩ ، ص٨٨٤) .

٣١- في رواية أخرى :"... بيده أن اسكت ، فأشار سحبان بيده أن دعني ، لا تقطع علي كلامي!" (ن.م) .

٣٢- في رواية أخرى :"ونحن في صلاة يتبعها تحميد وتمجيد ، وعظة وتنبيه ، وتذكير ووعد ووعيد" (ن.م) .

٣٣- حكى الأصمعي قال : كان إذا خطب يسيل عرقًا ، ولا يعيد كلمة ، ولا يتوقف ، ولا يقعد حتى يفرغ (البغدادي ١٩٨٩ ، ج١٠ ، ص٣٧١) . وفي مادة (Sahban Wa'il) ركز الكاتب في E.I[2]) على عدم إعادة سحبان الكلمة - في خطبته - مرتين دليلاً على قوة بيانه .

٣٤- هناك من يذكر موقف الخطباء الذين كانوا حاضرين في مجلس معاوية من سحبان فهم "لما رأوه خرجوا لعلمهم بقصورهم عنه" (الشريشي ١٩٥٢ ، ص٨٦) ؛ (ابن الجوزي ١٩٩٢ ، ج٥ ، ص٢٨٣) ولا أدري لماذا يخرجون ولا ينتظرون للاستماع لفصاحة وبلاغة هي مضرب المثل . غير أن البيت الذي ذكرته لمكي بن سوادة عن سحبان (ملاحظة رقم ٢٠) أتبعه المرزباني ببيت آخر لابن سوادة - هو وصف لما ذكر :

ترى خطباء القوم يوم ارتحاله كأنهم الكروان أبصرن جندلا

(السامرائي ١٩٨٤ ، ص٤٠٤) .

أن يتوقف في موعد الصلاة ، بل يرد عليه معتزاً بأنه أخطب "العجم والإنس والجن" ؛ ثم ما لبث أن قال مفاخراً بنفسه ببيت الشعر الذي ذكرته أعلاه . (ملاحظة رقم ١٣) :

لقد علم الحي اليمانون أنني إذا قلت "أما بعد" أني خطيبها[٣٥]

أعود إلى السؤال ـ موضوع الدراسة ـ : ما سر هذه المكانة وهذه الشهرة في نص لا يملك خصوصية أدبية متميزة ، بل هو موضع شك حتى في نسبته إلى سحبان (أنظر الملاحظة ٥٦ وما بعدها) .

لا أملك إزاء المادة التي تقرّيتها ـ أعلاه ـ إلا اجتهادات وافتراضات أحاول أن أتلمسها وفق معطيات يسيرة . وتنقسم هذه الاجتهادات إلى قسمين :

أ. قبول النص على أنه لسحبان ، وقبول ما تناقله الخلف عن السلف بشهرة سحبان خطيبًا فصيحًا بليغًا ..

ب. الشك في نسبة النص لسحبان ، والشك في الأخبار الواردة عنه .

أ. قبول النص :

أحاول فيما يلي تقديم الأسباب التي أعلت من شأن سحبان حتى ذاع صيته وعلا شأنه ؛ وقد تكون هذه الأسباب/الاجتهادات تكمل بعضها بعضًا :

١. السبب السياسي :

إن الخلاف بين علي ومعاوية ـ كما لا يخفى ـ ولّد الشعر السياسي ، وأجّج عوامل الخطابة ، فالخطابة التي لهج بها علي وأنصاره ، وكذلك الخوارج على اختلاف فرقهم كانت مشحونة بالعاطفة والإثارة ، وغالبًا ما تتسم بقوة السبك وحرارة اللهجة . والخطيب له مكانته في المفاخرة والمنافرة وبعث الحمية وجمع الكلمة ؛ فلا بِدع إذن أن يعمد الأمويون إلى أنصارٍ ـ من الخطباء الذين يتجهون إلى الدفاع عن حق الأمويين في الخلافة ، وإلى وجوب التمسك بتقديم فروض الطاعة للولاة الذين اعتلوا سدّة الحكم ، وورثوا الزعامة كابراً عن كابر .

٣٥ـ كان رد فعل معاوية ـ حسب الشريشي ـ "كذلك أنت" (م.س) .

كانت أهمية الخطابة في هذا العصر كبيرة و"يخيّل إلى من يقرأ أخبار القوم أنهم أصبحوا جميعًا خطباء ، فهم يخطبون في نظرياتهم السياسية ومعتقداتهم الدينية ... ومن ورائهم القصاص والوعاظ"[٣٦] ؛ ثم إنهم اتخذوا "الخطابة أداتهم للظفر في آرائهم السياسية والانتصار في مجادلاتهم المذهبية"[٣٧] .

من هنا يمكن تصور سلوك معاوية في اصطناع القصاص وتحفيز الخطباء بأنه سلوك تدعو إليه الحاجة في مثل أجوائه المحتدمة . ويذكر عمر فروخ أن سحبان "أدرك عند معاوية حظوة كبيرة يوم كان معاوية واليًا ، ثم أصبح خليفة[٣٨] ؛ لذا فليس غريبًا أن يجد سحبان له مكانًا في حضرة الخليفة ؛ وها هو الخليفة هادئ بل محب إزاء إدلال الخطيب بنفسه ، مع أن سحبان لا يستجيب لإشارته أن يتوقف بسبب موعد الصلاة .

أما نص خطبِه فقد يكون سياسيًا أو دينيًا ؛ فإن كانت هناك بعض الخطب السياسية فربما تكون قد ضاعت في جملة ما ضاع في عهد بني عباس ، أسوة برسائل عبد الحميد الكاتب الذي قال عنه ابن النديم "ولرسائله مجموع نحو ألف ورقة" [٣٩] .

وقد تكون خطبه دينية ، وغالبًا ما تكون الخطب الدينية ـ عامة ـ ذات أفكار متكررة وابتكار يسير ، ولا تحمل القوة وروعة التعبير شأن الخطب السياسية التي تدافع عن قضية أو تدفع أخرى ؛ والدينية ـ بالتالي ـ لا تحمل حرارة اللهجة[٤٠] ، بل فيها فتور العاطفة ، والمضمون الفاتر يجعل الأسلوب فاتراً ، فالتوجه هو إلى الله ، وإلى الجنة ونعيمها ، وهي معادة مكرورة في كل خطبة جمعة وفي خطب الأعياد ـ بصورة أو بأخرى ـ .

٣٦ـ ضيف [د. ت] ، ص ٦٦ .

٣٧ـ ن.م ، ص٦٧ .

٣٨ـ فروخ ١٩٨١ ، ص٣٩١ ؛ ولم يذكر فروخ المصدر الذي استقى منه هذه المعلومة الهامة .

٣٩ـ ابن النديم [د. ت] ، ص١٧٠ ؛ وفيه يقول إن عبد الحميد "كاتب مروان بن محمد ، عنه أخذ المترسلون ، ولطريقته لزموا وهو الذي سهل البلاغة" . أما إذا لم يكن سحبان يمثل اتجاهًا سياسيًا واضحًا ، فهذا من شأنه أيضًا أن يصرف الرواة عنه ، وخاصة في عصر يحاول أن يطمس آثار الأمويين .

٤٠ ـ الخطبة السياسة تتسم عادة بحرارة اللهجة لأن فيها دفاعًا عن أمور دنيوية وذاتية ، وهذا يستوجب التدقيق في الأداء والانطلاق بحماسة أكثر .

من هنا فـإننا لا نكاد نجـد إلا القليل من المحـفـوظ أو المدون من هذه الخطب والمواعظ الدينية[41].

٢. السبب الاجتسياسي (الاجتماعي السياسي) :

قد تكون شخصية قتيبة بن مسلم لها دور فعال في إظهار سحبان بهذا القدر من الشهرة (أنظر الملاحظة ١٠) ، فقتيبة باهلي ، وكان أبوه كبير القدر لدى يزيد بن معاوية "عظيم المكانة مرهوب الجانب ، راوية للشعر عالمًا به"[42] .

أشرنا إلى مكانة باهلة بين القبائل ـ في بداية هذه الدراسة ـ ؛ وحتى أؤكد مدى تأثير ذلك على قتيبة أورد نصًا آخر يبيّن ذلك :

"قال قتيبة بن مسلم لهبيرة بن مسروح : أي رجل أنت لو كان أخوالك من غير سلول؟ فبادل بهم! قال : أصلح الله الأمير ، بادل بهم من شئت وجنبني باهلة"[43] ، وقد أنشد أبو العباس لرجل من بني عبد القيس :

أباهل ينبحني كلبكم وأسدكم ككلاب العرب

ولو قيل للكلب يا باهلي عوى الكلب من لؤم هذا النسب[44]

فهل عجب إذا افترضنا إظهار قتيبة لبني قومه من خلال اعتزاز بهم ـ اعتزاز باهلي بباهلي؛ فقتيبة أولاً صاحب سطوة ونفوذ ، ثم إنه أدرك في طفولته سحبانَ ، ويحتمل أن يكون قد ترك سحبان أثراً ما في نفسه . ولعله استمع إلى والده ـ جليس يزيد بن معاوية وهو يروي هذه الرواية عن حضور سحبان والوفد إلى مجلس معاوية ، وخطبته فيه .

---

٤١ ـ إن خطبة سحبان تكرر معاني دينية سابقة ، مثلا ـ خطبة الرسول (ص) :"أيها الناس : إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم ، وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم ... فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ومن الحياة قبل الممات" (الجاحظ ١٩٨٥ ، ج١ ، ص١٦٥) ؛ (صفوت ١٩٦٢ ، ج١ ، ص١٥٢) ؛ (ابن قتيبة ١٩٨٦ ، ج٢ ، ص٢١٣) .

٤٢ـ ابن خلكان [د.ت] ، ج٤ ، ص٨٧ .

٤٣ـ ابن عبد ربه ١٩٦٥ ، ج٤ ، ص٤٩ .

٤٤ـ المبرد [د.ت] ، ج٢ ، ص١١ .

إن القصة التي نسجت حول الخطبة لا بد إلا أن تكون متأخرة ، فطبيعة الرواية التي تحدّث عن ماض كان ، والمغالاة في تعاطف معاوية من شأنها أن ترجح تقديري .

أضف إلى ذلك : ليست هناك أبيات شعرية أو أخبار يرد فيها ذكر سحبان قبل خلافة عبد الملك ـ وهي الفترة التي عايشها قتيبة ـ ؛ بل إن الجاحظ يشير إلى محاورة تعنينا هنا ؛ إذ خاطب عبد الملك بن مروان خالدَ بن سلمة المخزومي سائلاً : من أخطب العرب؟ قال : أنا ... ثم من؟ قال : روح بن زنباع . ولم يذكر سحبان من بين جملة خطباء عدّدهم[٤٥] .

ويبدو أن سحبان لم تتوسع شهرته أولاً ، ربما لبعد خراسان وابن قتيبة (الذي كان عاملاً فيها) ، أو ربما أن إشهار سحبان لم يستحكم بعد ؛ فالجاحظ يقدم لنا معلومة من عصره فيقول :"وقد يبلغ الفارس والجواد الغاية في الشهرة ، ولا يرزق ذلك الذكر والتنويه بعضُ من هو أولى بذلك منه ؛ ألا ترى أن العامة ابنُ القِرِّيّة عندها أشهر في الخطابة من سحبان وائل.."[٤٦] ؛ ويفهم من ذلك أن اسم سحبان لم يشع ، والجاحظ يهمه أن يظهر الناس سحبان.

كان الخطيب من العرب "إذا ارتجل خطبة ثم أعادها زاد فيها ونقّص[٤٧] ؛ فإذا كان من الصعب تحديد خطب الرسول نفسه ، وهو المثل الأعلى للفصاحة في نظر الرواة "أنا أفصح العرب ..." بل نجدها متضاربة أحيانًا متباينة أخرى ، فلا بدع ألا تحفظ خطب سحبان الدينية والوعظية ؛ فهل خطبته تعلق في الأذهان وتولى الأهمية أكثر من الحديث الشريف ومن خطب الصحابة ـ وهي قليلة في كتب التراث ـ ؟ ثم إن حديث الرسول أجيز فيه ذكر المعنى إذا اختُلف في اللفظ ، بسبب الخلاف على هذه اللفظة وتلك ، فكيف تحفظ خطب سحبان وهي

٤٥ـ الجاحظ ١٩٨٥ ، ج١ ، ص٣٤٦ .

٤٦ـ ن. م ، ص٢٠ . ابن القِرِّيّة هو أيوب بن زيد ، كان أعرابيًا أميًا ، ويعد من الخطباء المشهورين ، قتله الحجاج سنة ٨٤هـ (ابن قتيبة ١٩٨٦ ، ص٥٩٨) ؛ بينما يرى صاحب الأغاني "أن ثلاثة أشخاص شاعت أخبارهم واشتهرت ، ولا حقيقة لهم ولا وجود في الدنيا ، وهم : مجنون ليلى وابن القرية وابن أبي العقب" (الأصفهاني ١٩٦٣ ، ج٢ ، ص١١) .

٤٧ـ أنظر مادة "أمم" (ابن منظور ١٩٦٨ ، ج١٢ ، ص٣٤) .

طويلة جداً ، أو كما وصفت :"فإذا خطب لم يعد حرفًا ، ولم يتلعثم ، ولم يتوقف ، ولم يتفكر ، بل كان يسيل سيلاً"[٤٨] .

إن الوصف الظاهري الخارجي من شأنه أن يرسخ شهرة سحبان حتى ولو لم يبق من خطبه ما يرفد هذه الشهرة . إنه يخطب من صلاة الظهر إلى صلاة العصر «أكثر من ساعتين» على نفَس واحد "ما تنحنح ، ولا سعل ، لا توقف ، ولا ابتدأ في معنى فخرج منه وقد بقي عليه شيء" وهو "لا يقعد حتى يفرغ"[٤٩] .؛ "وكانت كل عين في السماطين شاخصة إلى أن أشار معاوية بيده أن اسكت"[٥٠] .

مثل هذه الأوصاف تقوي صورة الخطيب ، وتجعل أثره فاعلاً ؛ وليس أدل على ذلك من بعض خطباء اليوم ، ممن يلقون خطبهم الدينية والوعظية ، ولا يبقى في ذاكرتنا إلا الصورة الخارجية وطريقة التعبير والأداء .

٣. الجنوح إلى المبالغة :

إن عنصر المبالغة ماثل في الأدب العربي القديم ؛ وصيغة "أفعل" للتفضيل كثيراً ما وردت في الأمثال والأقوال . يقول شبيب بن شيبة عن صالح بن أبي جعفر بن أبي منصور :"ما رأيت كاليوم أبين بيانًا ، ولا أجود لسانًا ، ولا أربط جنانًا ، ولا أبلّ ريقًا ، ولا أحسن طريقًا ، ولا أغمض عروقًا من صالح"[٥١] . ولنقرأ نموذجًا آخر من الجاحظ يصف فيه داود بن علي : "كان أنطق الناس ، وأجودهم ارتجالاً واقتضابًا للقول"[٥٢].

---

٤٨. العسقلاني ١٩٧٠ ، ص٢٥٠، وفي رواية أخرى "إذا خطب لم يعد حرفًا ، ولم يتوقف ، ولم يتحبس ، ولم يفكر في استنباط ، وكان يسيل عرقًا كأنه آذيّ بحر ... ولا سأل عن أي جنس من الكلام كان يخطب فيه" (القيرواني ١٩٦٩ ، ص٨٨٤) .

٤٩. م.س. وكذلك (البغدادي ١٩٨٩ ، ج١٠ ، ص٣٧١) ؛ (الآلوسي [د.ت] ص١٥٦) .

٥٠. القيرواني ١٩٦٩ ، ص٨٨٤ ، استمرت الخطبة بين صلاة الظهر وصلاة العصر ، لكن الموسوعة الإسلامية تجعلها مدة "نصف يوم" E.I 2 :Article: Sahban Wa'il .

٥١. الجاحظ ١٩٨٥ ، ج١ ، ص٣٥٢ .

٥٢. ن.م ، ص٣٣١ . أما داود بن علي فهو من بني هاشم كان واليًا على الكوفة قبل السفاح .

جامعة

ولو عدنا إلى كتاب **مجمع الأمثال** ـ مثلاً ـ لوجدنا بعد كل حرف من حروف الهجاء "**ما جاء على أفعل من هذا الباب**" ؛ فلو أخذنا على الحرف «ح» ـ كلمة «أحمق» لوجدنا ثمانية أشخاص ضرب بهم المثل في الحمق[٥٣] .

على ضوء ذلك لا يستبعد أن يكون المثل « **أخطب من سحبان** » وسائر الأمثال الأخرى التي تدل على أنه **أفصح** ... ، **أنطق** ... ، **أبلغ** ... ، من باب الإعجاب الذي قد يكون تأتّى بسبب طريقة أدائه ، أو بسبب «تسويقه» سواء من قبل معاوية أو قتيبة ـ كما أشرت أعلاه ـ ؛ خاصة وصيغة أفعل واردة كثيراً في النصوص ، وتلقى من يذيعها ويرددها[٥٤].

ب. الشك (في النص وفي الأخبار عن سحبان) :

لم يقتصر الشك الذي بدأ به المستشرقون ـ وتابعهم طه حسين ـ على الشعر الجاهلي ، وإنما تعدّى ذلك إلى النثر ـ بما فيه من الخطابة ؛ يقول طه حسين :"فلا تصدق إذن أن قد كانت للعرب في الجاهلية خطابة ممتازة . إنما استحدثت الخطابة في الإسلام ـ استحدثها النبي والخلفاء ، وقويت حين نجحت الخصومة السياسية الحزبية بين المسلمين" [٥٥] .

ويقول بلاشير أيضًا :"إن الانتحال لا يبقى محصوراً في الشعر ، بل يتناول النثر حتى لنستطيع الجزم أنه ليس لدينا ـ باستثناء القرآن ـ سطر واحد من النثر يرجع تاريخه إلى هذا العهد ، ومن الضروري إذا أردنا تبين حقيقة المسألة بأن نشير إلى أن هناك كمية من الآثار

٥٣ـ الميداني ، ج١ ، ص٢١٨ ؛ أنظر كذلك مواد أخرى نحو "أفتك ، أخف ، أمنع ..." .

٥٤ـ جدير بالذكر هنا أن قتيبة بن مسلم استعمل في إحدى خطبه :"ما رأيت عظيم الكبر صاحب حرب إلا كان منكوبًا فلا والله حتى يكون عدوه عنده وخصمه فيما تغلب عليه أسمع من فرس ، وأبصر من عقاب ، وأهدى من قطاة ، وأحذر من عقعق ، وأشد إقدامًا من الأسد ، وأوثب من الفهد ، وأحقد من الجمل ، وأروغ من ثعلب ، وأغدر من ذئب ، وأسخى من لافظة ، وأشحّ من صبي ، وأحمع من ذرّة ، وأحرس من كلب ، وأصبر من ضب ... (صفوت ١٩٦٢ ، ج٢ ، ص٣١٣ نقلاً عن جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري ، ج١ ، ص١١٧) .

إن مثل هذا الاستعمال لأفعال التفضيل جزء من روح العصر ، ولا يخفى من الاقتباس ولع قتيبة بهذه الصيغة .

٥٥ـ حسن [د.ت] ، ص٣٧٤ .

القديمة التي أفسدتها الرواية الشفهية والتدوين امتزجت بآثار منحولة ذات مظاهر مختلفة ، ومنها قطع أدبية بديعة ... وهناك قطع منحولة صنعت بسذاجة"[٥٦] .

يقوى هذا ويتعزز إذا علمنا أن هذه المقطوعة من الخطبة ذكرت على أنها لأعرابي ولاه جعفر ابن سليمان بعض المياه ؛ فخطبهم يوم الجمعة فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد فإن الدنيا دار بلاغ ..... وقالت الملائكة : ما قدم؟ فلله آباؤكم ! قدموا بعضًا يكن لكم فرضًا ؟ ولا تخلفوا كُلا يكن عليكم كلاً ، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم"[٥٧] .

ويبدو أن المنطق في جانب هذه الرواية ، فخطبة الأعرابي ملائمة للوعظ الديني ، وهي تبدأ بالحمدلة والثناء على الله ، ثم بقوله "**أما بعد**" ، وتنتهي بقوله "**أستغفر الله لي ولكم**" وبالدعاء لأمير المؤمنين وولاة الأمر.

غير أن الأمر لم يقف عند هذا الشك في نسبتها لسحبان ، بل إن الخطبة نسبت للإمام علي بن أبي طالب ؛ فهذا ابن أبي الحديد يقول في شرحه لهذه الخطبة :

٥٦- بلاشير ١٩٥٦ ، ص١٨٣-١٨٤ .

٥٧- القالي [د.ت] ، ج١ ، ص٢٥٠ ، يذكر القالي أن هذه الرواية رواها أبو بكر الأنباري عن عبد الرحمن بن حسان. وقد وردت رواية أخرى على النحو التالي :"خطبة لأعرابي - : أما بعد ، فإن الدنيا دار بلاء ، والآخرة دار بقاء ، فخذوا أيها الناس لمقركم من ممركم ، ولا تهتكوا أستاركم ، ففي الدنيا أحييتم ، ولغيرها خلقتم . أقول قولي هذا وأستغفر الله ، والمدعو له الخليفة ، ثم الأمير جعفر بن سليمان "(ابن قتيبة ١٩٨٦ ، ج١ ، ص٢٧٥". أما رواية ابن عبد ربه فهي برواية الأصمعي ، وفيها إضافة :"ولغيرها خلقتم ، اليوم عمل بلا حساب ، وغداً حساب بلا عمل ، ثم يسترسل النص كما أورده القالي - أعلاه - ، لكن الختام لديه هو "أقول قولي هذا والمحمود الله ، والمصلى عليه محمد ، والمدعو له الخليفة ، ثم أمامكم جعفر ، قوموا إلى صلاتكم" (ابن عبد ربه ١٩٦٥، ج٤، ص١٠٨) .

وقد روي عن الأصمعي كذلك :"خطبنا أعرابي بالبادية فحمد الله واستغفره ، ووحده وصلى على نبيه ... فأبلغ في إيجاز ثم قال : أيها الناس إن الدنيا دار بلاغ ... في الدنيا ولدتم ولغيرها خلقتم " وختمها "والمصلى عليه رسول الله ، والمدعو له الخليفة (أبو جعفر المنصور) والأمير جعفر بن سليمان" (المبرد ١٩٩٧ ، ج٤ ، ص٣٦٠) وكان المنصور قد ولي ابن عمه - جعفر بن سليمان المدينة المنورة سنة ١٤٦هـ .

"وأكثر الناس على أن هذا الكلام لأمير المؤمنين علي عليه السلام ، ويجوز أن يكون الأعرابي حفظه ، فأورده كما يورد الناس كلام غيرهم"[٥٨] .

وقد وردت هذه الخطبة في باب التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة[٥٩] . بمعنى أن هذا الخلاف على نسبة الخطبة لم يأخذ سحبان بنظر الاعتبار ، بل هو خلاف حول نسبتها للأعرابي أو للإمام علي .

وقد ذكرنا ـ أعلاه ـ الاختلاف في إيراد صيغة النص ، والاختلاف في رواية ظروف الخطبة وما صحبها من حوار (أنظر الملاحظة ٢٥ وما بعدها) .

من الطريف أن نذكر أن هناك سحبان وائل آخر غير الخطيب الذي تناولته الدراسة ، وكان هذا قد مدح قتيبة بن مسلم[٦٠] .

من هنا نرى المعلومات المتضاربة التي لا نستطيع إلا أن نقابلها بالشك والتساؤل .

٥٨ـ ابن أبي الحديد ١٩٦٧ ، ج١١ ، ص٤ ؛ فقد ورد في النص "ففيها اختبرتم" بدلاً من ففيها حبستم ، وانتهت الخطبة بالقول :"فقدموا بعضًا يكن لكم قرضًا ، ولا تخلفوا كلاً فيكون فرضًا عليكم" .

٥٩ـ الشريف الرضي [د. ت] ، ج٢ ، ص١٨٣ ؛ ومن الجدير ذكره أن لعلي خطبة أخرى يرد فيها "الدنيا ممر لا دار مقر" (ن. م ، ص٤٩٣) .

٦٠ـ أنظر :؛ (الطبري ١٩٦٤ ، ج٦ ، ص٤٨٤)؛ (ابن كثير ١٩٦٦ ، ج٩ ، ص٩٤) ؛ (ابن الأثير ، ١٩٦٥ ، ج٤ ، ص٥٨١ ـ وهذا ذكر الاسم سحبان فقط) ؛ وقد أخطأ كاتب مادة "سحبان" في (E.I 2) إذ جعل الخطيب المخضرم (ت ٥٤هـ) يعيش حتى عصر قتيبة ، وينسب له الأشعار في مدحه ـ ولم يفطن إلى أن هناك "سحبان وائل" آخر غير الذي نتحدث عنه .

مجمل القول

لاحظنا ـ في الدراسة ـ حول سحبان بن وائل الخطيب كثيراً من الشك والتساؤل .

إن الشك في النص ونسبته يجب ألا يجعلنا نربطه بأسباب شهرة سحبان ؛ فالنص أصلاً هو غير متميز ، بالإضافة إلى كونه يرد بروايات مختلفة . وسواء كان النص لسحبان أو للأعرابي أو حتى للإمام علي فإنه لا يخرج عن كونه نصًا وعظيًا مكروراً لا يدل على قدرة بلاغية خاصة ـ على غرار ما عرفناه في خطب علي أو الحجاج أو زياد بن أبيه ... وغيرهم .

أما الشهرة فهي ـ بحد ذاتها ـ موضوع اهتمامنا ، وهي التي نظرت الدراسة إليها أكثر . ونظرة إلى هذه الاجتهادات/الافتراضات التي ذكرتها فإنه يمكن التوصل إلى تصور يؤلف بينها ، حتى ولو كان كل افتراض منها ـ على حدته ـ بحاجة إلى إثبات أكثر وأعمق .

إن شهرة سحبان تأتّت ـ بالتالي ـ زمن الأمويين . وقد تكون هذه العلاقة سببها الخليفة معاوية بن أبي سفيان الذي استقبل سحبان واحتفى به ، واعترف له أمام الملأ بأنه أخطب العرب ـ خاصة ومعاوية في ظروفه الحزبية والسياسية المختلفة كان أحوج ما يكون إلى قصاصين وخطباء يذودون عن حق الأمويين بالخلافة .

وقد تكون هذه الشهرة بسبب قتيبة ابن مسلم الباهلي ـ قائد جيش عبد الملك بن مروان ، فعزا إلى سحبان الباهلي هذه الشهرة لاجئًا إلى (أو ناسجًا) حكاية سحبان مع معاوية ؛ وذلك من باب رد الفعل حتى ينتصر لقبيلته ويرد لها الاعتبار ـ وقد عرفت باهلة بين القبائل بالضعة واللؤم . ويشتد هذا التصور إذا عرفنا أن سحبان توفي بينما كان قتيبة في صباه ، وإذا علمنا أن والد قتيبة كان جليسًا ليزيد بن معاوية ؛ ولن أذهب بعيداً للتأكيد على تأثير الطفولة بما ترى وتسمع ، حتى ليظل هذا التأثر عالقًا بالذهن ، ويتجلى لدى الإنسان في أكثر من موقف .

ثم إن سبب المظهر الخطابي كفيل بشهرة الخطيب ، وأعني أنه كما وُصف "لا يسعل ولا يتنحنح ، ولا يتلجلج ... ويسيل سيلاً" ، ولا يستبعد أن تكون هذه المظاهر الخارجية قوية الأثر أكثر من النصوص نفسها التي ضاعت لسبب أو لآخر . أقول "ضاعت" لأننا عرفنا عن محاولات العباسيين في طمس آثار الأمويين ـ كرسائل عبد الحميد الكاتب مثلاً ـ . فإن لم تكن ضاعت للأسباب السياسية فعلى الأقل يمكننا أن نؤكد أن الخطب الدينية والوعظية لا يبقى منها في الذاكرة إلا ما ندر ؛ وكم بالحري إذا كانت الخطبة طويلة ـ كما أخبرنا عن خطب سحبان .

بالإضافة إلى ذلك فإن المبالغة لون في الأدب العربي القديم ، ولها نماذج كثيرة في استخدام "أفعل التفضيل" : أبلغ من ... ، أحمق من ... ، أجهل من ... إلخ .

كل هذه وأمثالها بحاجة إلى معاودة النظر ، ولعل هذه الدراسة تطرح تساؤلات حول آراء مقرّرة وسائدة ، وأرجو أن تكون قد ساهمت في إلقاء الضوء على شخصية ترددت في أمثالنا ، وبرزت في أدبنا العربي .

المراجع

ابن أبي الحديد ١٩٦٧

ابن أبي الحديد : **شرح نهج البلاغة** ، ج١١ (الطبعة الثانية) ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ـ ١٩٦٧.

ابن الأثير ١٩٦٥

ابن الأثير ، عز الدين : **الكامل في التاريخ** ، ج٤ ، دار صادر ودار بيروت ، بيروت ـ ١٩٦٥ .

ابن الجوزي ١٩٩٢

ابن الجوزي : **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم** ، ج٥ ، (راجعه نعيم زرزور) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ـ ١٩٩٢ .

ابن خلكان [د.ت]

ابن خلكان : **وفيات الأعيان** ، ج٤ ، (حققه إحسان عباس) ، دار الثقافة ، بيروت ـ د.ت .

ابن عبد ربه ١٩٦٥

ابن عبد ربه : **العقد الفريد** ، (سبعة أجزاء) الطبعة الثانية ، دار الكتاب العربي ، بيروت ـ ١٩٦٥ .

ابن عساكر ١٩٧٩

ابن عساكر : **تهذيب تاريخ دمشق الكبير** ، ج٦ ، دار المسيرة ، بيروت ـ ١٩٧٩ .

ابن قتيبة ١٩٨١

ابن قتيبة : **المعارف** (الطبعة الرابعة)، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨١ .

ابن قتيبة ١٩٨٦

ابن قتيبة : **عيون الأخبار** (أربعة أجزاء) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ـ ١٩٨٦.

ابن كثير ١٩٦٦

ابن كثير : **البداية والنهاية** ، ج٩ ، مكتبة المعارف ، بيروت ـ ١٩٦٦.

ابن منظور ١٩٦٨

ابن منظور : **لسان العرب** (١٥ جزءاً) ، دار صادر ، بيروت ـ ١٩٦٨ .

ابن نباتة ١٩٦٤

ابن نباتة : **سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون** ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر العربي ، القاهرة ـ ١٩٦٤.

ابن النديم [د.ت]

ابن النديم : **الفهرست** ، دار المعرفة ، بيروت ، [د.ت].

الأصفهاني ١٩٦٣

الأصفهاني ، أبو الفرج : **كتاب الأغاني** ، (٢٥جزءاً) ، أشرف على مراجعته وطبعه العلايلي وآخرون ، بيروت ـ ١٩٦٣.

الآلوسي [د.ت]

الآلوسي محمود : **بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب** ، ج٣ ، عني بنشره محمد الأثري ، دار الكتب العلمية ، بيروت [د.ت] .

البغدادي ١٩٨٩

البغدادي ، عبد القادر : **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب**، (عشرة أجزاء)، تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ـ ١٩٨٩ .

بلاشير ١٩٥٦

بلاشير ، ريجيس : **تاريخ الأدب العربي** (العصر الجاهلي) ، تعريب إبراهيم الكيلاني ، دار الفكر ، بيروت ـ ١٩٥٦ .

الثعالبي ١٩٨٥

الثعالبي ، أبو منصور : **ثمار القلوب في المضاف والمنسوب** ، دار المعارف ، القاهرة ـ ١٩٨٥ .

الجاحظ ١٩٦٩

الجاحظ : **الحيوان** (سبعة أجزاء) ، الطبعة الثانية ، دار الكتاب العربي ، بيروت ـ ١٩٦٩ .

الجاحظ ١٩٨٥

الجاحظ : **البيان والتبيين** (أربعة أجزاء) ، الطبعة الخامسة ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ـ ١٩٨٥ ،

حسين [د.ت]

حسين ، طه : **في الأدب الجاهلي** ، (نسخة مصورة عن الأصل الصادر سنة ١٩٢٧) ، حيفا ـ [د.ت]

الحموي ١٩٢٢

الحموي ، ياقوت : **معجم البلدان** (٢٠ جزءاً) ، الطبعة الثانية ، مطبوعات دار المأمون ، القاهرة ـ ١٩٢٢ .

الزبيدي ١٣٠٦هـ

الزبيدي : **تاج العروس من جواهر القاموس** ، (مصور عن طبعة المطبعة الخيرية ، القاهرة ـ ١٣٠٦هـ) .

الزركلي ١٩٩٥

الزركلي ، خير الدين : **الأعلام** (الطبعة الحادية عشرة) ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٩٥ .

الزمخشري ١٩٧٧

الزمخشري : **المستقصى في أمثال العرب** ، (ج١) ـ الطبعة الثانية ، دار الكتب الأهلية ، بيروت ـ ١٩٧٧ .

السامرائي ١٩٨٤

السامرائي ، إبراهيم : **من الضائع من معجم الشعراء للمرزباني** ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ـ ١٩٨٤ .

الشريشي ١٩٥٢

الشريشي : **شرح مقامات الحريري** ، المجلد ١-٢ ، المكتبة الشعبية ، القاهرة ـ ١٩٥٢ .

الشريف الرضي [د.ت]

الشريف الرضي : **نهج البلاغة للإمام علي بن أبي طالب** ، (ج٢) ، تحقيق الشيخ محمد عبده ، منشورات المكتبة الأهلية ، بيروت ـ [د.ت] .

صفوت ١٩٦٢

صفوت ، أحمد : **جمهرة خطب العرب** (ج٢)، شركة مكتبة ومطبعة الحلبي ، القاهرة ـ ١٩٦٤ .

ضيف [د.ت]

ضيف ، شوقي : **الفن ومذاهبه في النثر العربي** ، (الطبعة الخامسة) ، دار المعارف ، القاهرة ـ [د.ت] .

الطبري ١٩٦٤

الطبري ، محمد بن جرير : **تاريخ الرسل والملوك** ، ج٦ ، دار المعارف بمصر . ١٩٦٤ .

العسقلاني ١٩٧٠

العسقلاني ، ابن حجر : **الإصابة في تمييز الصحابة** (القسم الثالث) ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، القاهرة ـ ١٩٧٠ .

علي ١٩٧٦

علي ، جواد : **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام** ، (عشرة أجزاء) ، دار العلم للملايين ومكتبة النهضة ، بيروت ـ بغداد ـ ١٩٧٦ .

فروخ ١٩٨١

فروخ ، عمر : **تاريخ الأدب العربي** (١) ، دار العلم للملايين ، بيروت ـ ١٩٨١.

القالي [د.ت]

القالي ، أبو علي : **الأمالي**، ج(١) ، منشورات دار الحكمة ، بيروت ـ [د.ت].

القيرواني ١٩٦٩

القيرواني ، أبو إسحق الحصري : **زهر الآداب وثمر الألباب** ، ج(٢) ، الطبعة الثانية ، تحقيق علي البجاوي ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ـ ١٩٦٩ .

المبرد ١٩٩٧

المبرد : **الكامل** ، (أربعة أجزاء) ، المكتبة العصرية ، بيروت ـ ١٩٩٧ .

مؤنس ١٩٨٧

مؤنس ، حسين : **أطلس تاريخ الإسلام** ، الزهراء للإعلان العربي ، القاهرة ـ ١٩٨٧ .

الميداني ١٩٥٥

الميداني ، أبو الفضل : **مجمع الأمثال** ، ج(١) ، مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة ـ ١٩٥٥ .

E.I.2 : Sahban Wa'il (Written by : T, Fahd -).